من الشباب الباكر إلى النضج

(3)

الأخ محمد قطب

وتحدثنا عن النمو النفسي الذي ينقل اهتمامات الشاب من محيطها الضيق الذي كان يعيش فيه في طفولته ومراهقته ، إلى نطاق واسع يشمل المجتمع الذي يعيش فيه ، والمجتمع البشري كذلك .

ومنهج التربية الإسلاميّة يستوعب هذا النمو النفسي ويوجهه وجهة الخير على خُطَى المنهج الرباني المنـــزَّل مـــن عند الله .

إنّ المنهج الرباني يدعو إلى ترابط المجتمع ، بل الأمة الإسلاميّة بأسرها ، فيحدث المؤمنين بأنهم إخوة :

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ... ﴾ [الحجرات : 10]

ويحدد هذه الأخوة تحديداً واضحاً . إنها الأخوة في العقيدة . إنها ليست رابطة الدم ولا الجنس ولا اللغة ولا القوم ولا الأرض ولا المصالح المشتركة ، ولا أي آصرة مما تقيم عليه الجاهليات روابطها في القديم أو الحديث . إنما يكـــون لهذه الروابط كلها وزن حين تكون قائمة في ظل العقيدة :

﴿ ... **وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ... ﴾ [الأنفال : 75]

أما في غير العقيدة فكلها روابط منبتّة ومحرّمة :

﴿ **قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : 24]

وليس معنى هذا هو العداء للبشرية :

﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَـــى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة : 8-9]

فالعقيدة محور الحياة ، ومحور الحركة ، ومحور المشاعر ، ومحور السلوك .

والولاء هو للمؤمنين :

﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ [المائدة : 55]

ومن هنا يوجَّه الشباب في المنهج الإسلاميّ إلى أن يكون ولاؤهم لجماعة المؤمنين ، وأن تكون مـــشاعرهم نحـــو البشرية كلها بحسب موقف هذه البشرية من دين الله ومن المؤمنين .

أما داخل الجماعة المسلمة فهذه هي التوجيهات والتعليمات التي يتربى عليها الشباب (وغـــير الـــشباب بطبيعـــة الحال !)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُـــنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيـــمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الحجرات : 11-12]

وعلى المربي أن يتابع ترسيخ هذه الأخلاقيات حتى تصبح عادة ، وتصبح دستوراً داخلياً يتصرف الشاب بمقتضاه تلقائياً كلما عرض موقف من المواقف المذكورة في تلك الآيات . ويحتاج الأمر إلى تذكير مستمر حتى ترسخ هـــذه العادة . ويكون عدم الترحيب وإظهار الاستنكار والامتناع عن الاستماع من وسائل الصد عن الوقوع فيما نهـــى الله عنه من السخرية والغمز واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن بغير تأكد والتجسس والغيبة والنميمة .. إلخ . وهكـــذا تتشكل مشاعر الولاء على صورتها السليمة التي يريدها الإسلام .

ثم إنّ من علائم الأخوة ووسائلها التكافل في المجتمع المسلم بين القادرين وغير القادرين . وهذا أيضاً يحتـــاج إلى توجيه وإلى تعويد . والقدوة أمر عظيم الأثر في ذلك . فحين يرى الشاب –منذ كان طفلاً ومراهقاً– أن أبويـــه –إن كانا من القادرين– يقومان بكفالة المحتاجين ممن يعرفونهما فإن هذا سيؤثر في نفسه ويعوده على مشاعر التكافل .

والإسلام لا يقصر التكافل على المال . وفي حديث الرسول ﷺ ما يشير إلى لون من التكافل غير المال ثم هنـــاك التعاون :

﴿ ... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... ﴾ [المائدة : 2]

والتعاون يحتاج إلى تربية ، تبدأ منذ الطفولة وتأخذ حيزاً أكبر في فترة المراهقة . ولكن مجالها الأوسع هـــو فتـــرة الشباب ، لأنها الفترة التي يتجه فيها الشباب من ذات نفسه إلى التكتل والتجمع ، والتي يملك فيها في الوقـــت ذاتـــه القدرة الجسمية والنفسية والعقلية التي تجعل التعاون مثمراً وملموس الفائدة .

وغرس التعاون يحتاج إلى التركيز على خط الغيرية الذي ينمو من تلقاء نفسه في تلك الفترة ، وضبط الخطـــوط الأخرى التي تعاكسه . وهي موجودة في الفطرة وجوداً تلقائياً ، ولا ضير منه في صورتها العادية ، ولكنـــها عرضـــة للتضخم المنحرف إن لم توجه التوجيه السليم . وأبرز الخطوط التي تعاكس خط الغيرية حين تنحرف هـــو شـــعور الإنسان المتضخم بذاته . ومثل هذا الشخص لا يتعاون مع الآخرين ، لأنه يتوقع من الآخرين أن يخدموه لا أن يقـــوم هو بخدمتهم ! وغالباً ما يكون هذا الشخص قد مَرَد على انحرافه هذا منذ الطفولة بأن كان طفلاً مدللاً يسارع أبواه إلى إجابة طلباته المعقولة وغير المعقولة ، ويحيطانه باهتمام زائد يضخم تمركزه الطبيعي حول ذاته . ثم تجـــيء فتـــرة المراهقة فالشباب فتزيد انحرافه تضخما .

وحب السيطرة كذلك مما يفسد الغيرية ويفسد القدرة على التعاون . وهو لون منحرف من ألوان إثبات الذات ، يدفع صاحبه إلى الإحساس بأنه ليس في مستوى الآخرين وإنما أعلى منهم ، ومن ثم فلا ينبغي أن يتعاون معهم ، وإنما يأمرهم ليطيعوا !

وواجب المربي أن يصلح هذه الانحرافات حتى وإن كانت نبتت في مرحلة الطفولة و لم تقوّم في موعدها المناســـب هناك . ففترة الشباب الباكر بخصوبتها الفائقة صالحة لتقويم ما لم يقوّم من قبل ، بتنمية الاتجاهـــات الـــسليمة ذات الجذور الموجودة في أصل الفطرة .

ويملك المربي –وخاصة في المدرسة– وسائل كثيرة لتقويم هذه الانحرافات إن كانت موجودة ولتنمية القدرة علـــى التعاون الجماعي المثمر . وحياة المعسكرات من أنجع وسائل التربية في هذا الشأن –والـــشباب يحـــب المعـــسكرات بطبيعته– فإنه لا يمكن أن يظل شاب على جموده أو عزوفه حين يرى الباقين كلهم يقومون بالأعمال المطلوبة منهم في المعسكر . إنما يخجل من موقفه ويضطر ولو كارهاً في مبدأ الأمر أن يعمل .. حتى يتعود أن يعم بغـــير تـــضجر ولا كراهية . وسيجد الآخرين –وهم زملاء على نفس الدرجة ونفس المستوى– يقدمون له الخدمات فيستحي ألا يقدم لهم الخدمات بدوره . وهكذا يتعود على التعاون حتى يصبح سجيّة فيه .

وحب الرياسة والسيطرة يمكن علاجه كذلك في تلك الفترة حتى وإن كان الشاب قد مرد عليه من أيام الطفولة أو المراهقة . وليس من الضروري أن تكون وسيلة العلاج هي التحطيم ! فهذه آخر الوسائل جميعاً ، وحين تفـــشل الوسائل (السلمية) كلها في العلاج ! إنما أنجع الوسائل هو أن يعهد إلى مثل هذا الشاب بتحمل المسؤولية . مسؤولية حقيقية جادة ، ويكون مسؤولاً عنها أمام المربي الذي يتولى الإشراف عليه . عندئذ سيحس أن المسألة ليست هـــي

(المريسة) الفارغة إنما هي القيام بالمسؤولية على وجهها الأكمل الذي لا يعرّضه للوم ، ولا يعرّض ذاته التي يعتز بهـــا للجرح . وبذلك يصل المربي إلى هدفين طيبين بإجراء واحد . هما ضبط هذا الشعور المنحرف وتقويمـــه ، وتعويـــد الشاب كذلك على تحمل التبعات . وكلاهما خير .

أما الشاب الذي يحجم عن التعاون مع الآخرين بسبب انطوائه على نفسه وعزلته فينبغي تشجيعه تدريجياً علـــى الخروج من عزلته ومشاركة زملائه حتى يأنس إلى ذلك ويتعود عليه .

ومن وسائل الترابط في المجتمع المسلم كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن في مودة ورفق ، وبـــدافع حب الخير للآخرين لا بدافع التعالي عليهم وتجريحهم وإحراجهم .

فالمجتمع الذي لا يأتمر بالمعروف ولا يتناهى عن المنكر مجتمع ملعون عند الله :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 87-79]

والجاهلية المعاصرة أسوأ مثل في هذا الشأن . فهم لم يقفوا عند حد عدم التناهي عن المنكر ، الذي استحق اللعنة عند الله ، إنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، وهي الدرجة التي تؤذن بالبوار والدمار فوق اللعنة . وهذا هو المصير المحتوم لهذه (الحضارة !) ما لم يغيروا ما بأنفسهم .

ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محكوم بشروط من جانب آخر . فلا يجوز أن ينتهي إلى التنابز المنهي عنه ، ولا إلى السخرية المنهي عنها ذلك ، ولا إلى التجسس ، ولا إلى إساءة الظن بغير دليل . إنما هي النصيحة المخلـــصة والمودة والرفق ، وعدم التشهير وعدم الإحراج . ولقد كان رسول الله ﷺ يتحاشى أن يذكر شخصاً بعينه في مجـــال الإنكار فيقول : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، حتى ينبه الفاعل دون التشهير على الملأ ، لأنه يعلم ﷺ أن التشهير على الملأ يحرج صدر المشهر به ولا يجعل كلمة النصيحة والتوجيه تأخذ مكانها الصحيح عنده .

والمربي الحكيم يربي أبناءه على هذا الخلق الإسلاميّ بإعطاء القدوة من نفسه أولاً ، وبالتوجيه والتذكير والتعويد .

وينبغي أن نذكر بصفة عامة أن التنمية النفسية الصحيحة لا تتم في فرد بمفرده ، وفي هذه الفترة بالذات .

فأما أنها لا تتم في فرد بمفرده فلأنها مبنية أساساً على (الغيرية) . على التعامل مـــع الغـــير والتـــرابط والـــتلاحم والتعاون . فهي -بطبيعتها- أمور جماعية ، تحتاج إلى الوجود في جماعة والتعامل مع هذه الجماعة . وإلاّ فإنها تـــصبح أموراً نظرية لا رصيد لها من الواقع ، وتخيب حين تصطدم بالواقع !

كيف يتدرب الشاب على الأُخوّة ، إذا لم يمارس الأخوّة بمشاعرها الحقيقية مع (الإخوة) الذين يربطهم به هـــذا الرباط ؟

كيف يتدرب على التعاون إذا لم يقم بهذا التعاون بالفعل مع أفراد آخرين ؟

كيف يتعود أن يؤثر على نفسه إن لم يكن هناك إلاّ نفسه ؟

إنّ الوجود في جماعة هذا الذي ينمي هذه المشاعر وهذه الألوان من السلوك ، ثم إنّه هو الذي يبرز للمربي ما فيها من نقص يحتاج أو توجيه أو تقويم . والشاب الذي يتربى في عزلة عن الآخرين –وإن حاول أن يستقيم على المنـــهج السليم– تنمو بعض جوانب نفسه وتظل جوانب أخرى ضامرة لأنها لا تعمل ، وقد تكون –في ضمورها– منطويـــة على كثير من العيوب الخفية ، التي تنكشف لا محالة عندما تضطره الظروف أن يعيش في مجتمع ، أو قد تكون –مـــن عدم الممارسة– عاجزة عن العمل ، ومن ثم تعرّض صاحبها للفشل .

لذلك فلابد من وجود جماعة ..

فأما إن كانت الدولة مسلمة والمجتمع مسلماً فالأمر سهل ، لأنه لا يزيد على وضع الشاب في مجموعة من زملائه في شكل (أسرة) مترابطة ، يتعهدها المشرف عليها بالمعايشة والمصاحبة والملاحظة والتوجيه . ويقوم معها بـــرحلات بين الحين والحين ، ويقيم معها بعض المعسكرات التي يتدربون فيها على العمل والتعاون ، ويلتقـــي معهـــا في دروس مستمدة من القرآن والحديث والسيرة النبوية وسير الصحابة رضوان الله عليهم ، تكون كلها مجالاً للتربية والتوجيـــه المباشر وغير المباشر ، مع القيام بشعائر التعبد في مناسباتها ، فتقام الصلاة جماعة ، ولا بأس من تناول (الأسرة) طعام الإفطار في رمضان في بعض الليالي وإحيائها بالذكر والعبادة وتلاوة القرآن مع صلاة القيام حتى تكون ليالي عبـــادة متميّزة تترك طابعها في الوجدان . كما تتزاور الأسرة وتتعاون على القيام ببعض الخدمات الاجتماعية التي تـــدخل في نطاق إمكانهم .. إلى أمثال هذه الألوان من النشاط التي تطبع النمو النفسي بالطابع الإسلاميّ الصحيح .

وأما حين نفتقد الدولة المسلمة والمجتمع المسلم اللذين يقومان بهذا التوجيه ، بل نجد بدلاً مـــن ذلـــك التـــشجيع والإغراء على قيام (ثلل)[1] من الشباب تتسكّع في الطرقات لمعاكسة المارين والمارات ، أو تتجمع للعب الورق ولعب القمار ، أو تذهب جماعة إلى أماكن اللهو والفساد والعبث والمجون ، أو تقضي وقتها في تفاهات فارغة تكره الجـــد وتتفلّت منه ، أو تتحلّق حول التلفزيون الساعات الطوال حول مسرحية عابثة أو فيلم هابط .. إلى أمثال هذه الألوان من النشاط التخريبي الذي يخرّب بنية النفس ويحلّ روابطها ..

عندئذ لا مناص من أن تقوم الجماعة التي تنذر نفسها للدعوة بتربية الشباب التربية الإسلاميّة الواجبة . ولن يكون لها سلطان بطبيعة الحال على الشباب كلّه ، ولن تمنع سيل الفساد في المجتمع من أن يجري مجراه ما دامت الدولة تيسّر

له وتشجع عليه بوسائل إعلامها ونظامها كله ، ولكنها ستسخلص الفئة النظيفة من الشباب من أن يجرفهـــا التيـــار الجارف ، وتكون منطقة جذب دائم لمزيد من الشباب الراغب في الخروج من الحمأة الدنسة والتطهر مـــن أرجـــاس الجاهلية .

ولن ترضى الجاهلية بطبيعة الحال عن هذه الجماعة ، ولن يرضى (الملأ) المسيطرون على الجاهليـــة بوجـــود فئـــة متطهرة بين ظهرانيها ، فتتصايح عليها كما تصايحت الجاهلية من قبل :

﴿ **أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ !!** ﴾ [الأعراف : 82] وتتصدى الجاهلية للجماعة تريد الفتك بها ، ويقع الابتلاء ، ويقع في الطريق شهداء ، ويعذّب معذّبون .. ويتربى الشباب في داخل المحنة ، في البوتقـــة الـــتي تصهر النفوس والمشاعر كما تصهر الأجساد بالعذاب .. وتتم سنّة الله :

﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّـــذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : 2-3]

ويتم التمحيص الذي يعقبه التمكين حسب سنة الله :

﴿ ... **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّـــذِينَ آَمَنُـــوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : 140-141]

ويتم تأهيل أهل الجنّة للجنّة حسب سنة الله :

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران : 142]

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : 214]

❍ ❍ ❍

وتحدثنا قبل عن النمو العاطفي في مرحلة الشباب الباكر .

والتربية الإسلاميّة معنية بالنمو العاطفي عنايتها بكل أنواع النمو في الكائن البشري .

إنّ العواطف ليست (شأناً خاصاً) لصاحبها كما تعلن الجاهلية المعاصرة ، ومن ثم فإنه يقع في دائرة (حريته الشخصية) أن يتصرف بها كما يشاء !

إنّ هذه الجاهلية –لغاية في نفس (يعقوب)– تطلق (الحرية الشخصية) للإنسان ابتداءً من فترة المراهقة ثم خاصة في فترة الشباب ، لتحطم بها مقدسات البشرية كلها من عقيدة وأخلاق ، بينما هي تضيق كل التضييق على هذه الحرية الشخصية في المجال الذي كان ينبغي أن تطلق فيه !

فالدين ، والأخلاق ، والتقاليد الاجتماعية ، والزواج ، والأسرة .. كل هذه نهب مباح للحرية الشخصية تقتحمها اقتحاماً وتلتهمها التهاماً ولا تذر فيها شيئاً قائماً على أصوله .

أما حين تمس مصالح الرأسمالية في الغرب ، أو تمس مصالح الحزب الشيوعي الحاكم أو اللجنة التنفيذية العليا أو الزعيم المقدس في الشرق ، فهنا تَخرس الألسنة المدافعة عن الحرية الشخصية أو تُخرس ، وتتسارع الأنظمة والتشريعات وأجهزة السلطة في تأديب المعتدي الأثيم الذي سولت له نفسه ما سولت ، وقد لا ترضى في تأديبه بأقل من الإعدام ! ويقال عندئذ إنه اعتدى على (الصالح العام) !!

والإسلام يحترم العواطف البشرية –كلها على إطلاقها– ولكنّه لا يقبل لها أن تطغى وتتجاوز الحد ..

عواطف الأم لابنها والأب لابنه ، وعواطف الولد لوالديه ، وعواطف الجنس ، وعواطف الإخـــاء والزمالـــة ، والعواطف الاجتماعية ، والعواطف الإنسانية .. كلها عواطف عميقة في الفطرة ، وكلها لها وزنها وتقديرها في ديـــن الفطرة .

بشرط واحد ، هو ألا تطغى وتتجاوز الحد ..

والذي يرسم الحد هو الله .. ومن غيره يملك هذا الحق ؟

﴿ ... **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ... ﴾ [الأعراف : 54]

فمن كونه ﷻ هو الخالق ، فهو الآمر . ولا يحق لكائن من كان أن يكون له (الأمر) حتى يكون خالقاً مثل الله ! كذلك لأنه هو سبحانه (العليم الحكيم) فهو الذي يعلم ما يصلح لهذه الفطرة وما يصلحها ، ويعلم الحدود التي ينبغي أن يقف عندها الإنسان فلا يتعداها أو لا يقربها :

﴿ ... **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ... ﴾ [البقرة : 229]

﴿ ... **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا** ... ﴾ [البقرة : 187]

ولا يحق لكائن من كان أن يكون له الأمر حتى يكون عليماً حكيماً مثل الله ، يعلم حقيقة خلق الإنسان وحقيقة نفسه ، وحقيقة ماضيه وحاضره ومستقبله إلى أن تقوم الساعة وبعد أن تقوم الساعة .

فإن لم يكن هناك من أحد يخلق مع الله ، أو يعلم علم الله ويملك حكمته ، فليس من حق أحد أن يكـــون لـــه الأمر .. أن يقول هذا حلال وهذا حرام . هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح .. إلاّ بإذن مـــن الله ، وإلاّ فهو الشرك واتخاذ الشركاء من دون الله :

﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ... ﴾ [الشورى : 21]

أما المؤمنون فهذه سبيلهم :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ... ﴾ [النساء : 59]

فكل ما أحله الله ورسوله فهو حلال ، وكل ما حرّمه الله ورسوله فهو حرام .. وكذلك المـــستحب والمكـــروه والمباح .. المرجع فيها هو الله والرسول . وحتى ما يجتهد فيه البشر فهم يجتهدون فيه بإذن من الله وإلاّ ما حق لهـــم الاجتهاد .

وقد كلف الله الوالدين رعاية ولدهما وهدايته إلى الإسلام . فتلك هي الحدود التي تدور فيها عواطفهما نحـــوه ، ملتزمة بأمر الله . فلا يجوز لهما أن ينشئاه على الكفر أو ينشئاه بلا دين ولا أخلاق كما تفعل الجاهلية المعاصرة .

وكلف الأبناء أن يرعوا حق الوالدين وأوصاهم بهما خيراً وإحساناً والأم بصفة خاصة . فتلك هي حدود عواطف الأبناء للآباء . فلا يجوز لهم أن يهجروا آباءهم –وخاصة في شيخوختهم– كما يفعل الأبناء في تلك الجاهلية ، حيث لا يعرف الولد ولا البنت أبويهما منذ يخرجان في سن الشباب ، ولا يكلفان نفسيهما الإنفاق عليهمـــا ولـــو كانـــا معوزين وكان الأولاد من أصحاب الملايين !

وأحل الله عواطف الجنس ، وأشار إليها على أنها آية من آيات الله :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـــات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم : 21]

ولكنه اشترط أن تكون حلالاً طيباً ، لا سفاحاً ولا فاحشة ولا اتخاذ أخدان كما تفعل الجاهلية المعاصر بـــصفة خاصة :

﴿ ... **وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ... ﴾ [النساء : 24]

﴿ ... **مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ** ... ﴾ [النساء : 25]

فليس في الإسلام كبت لعواطف الجنس ، وليس فيه حجر على الشباب أن يحس بها . والمنهج الرباني المتكامل – حين يطبق في واقع الأرض لا يجعل الجنس مشكلة كما أشرنا في الفصل السابق ، ولا يجعله أزمات بالنسبة للشباب ، ولا يجعله أمراً يتلف الأعصاب ويرهق المشاعر . إنما يجعله أمراً طبيعياً سهلاً ميسراً مثمراً مباركاً ينـــشر في المجتمـــع السعادة والخير والنماء .

أما حين تعقد الجاهلية الأمور –كما وضّح (ول ديورانت) في كتابه– وتسد كل الطرق النظيفة وتفتح كل أبواب الدنس الفاحش ، فهي التي تصنع الأزمة بأيديها للشباب ، ثم تروح تتظاهر بـــالعطف علـــيهم والـــسعي إلى حـــل مشكلاتهم النفسية والعصبية ، بمزيد من سعار الجنس المجنون !! وتصف ألسنتهم الكذب فتقول إنّ الدين هو المسؤول عن الأزمة ! والآن أصبحت أوروبا بلا دين ، ولم تعد هناك قيود البتة على النشاط الجنسي ، سويِّه وشاذِّه ســـواء .. فما بال المصحات العقلية عامرة بالمجانين ، وما بال العيادات النفسية تزخر بالزائرين ؟!

﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَـــذْنَاهُمْ بِمَـــا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف : 96]

أما عواطف الإخاء والزمالة والعواطف الاجتماعية فقد رأينا كيف يحتفي الإسلام بها ويوجه إليها ويربي عليهـــا . ولكن بشرط أن تكون هي كلها في إطار الإسلام . فكلها عواطف ولاء . وولاء المؤمن محـــدد بـــالمؤمنين بعـــد الله ورسوله :

﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا** ... ﴾ [المائدة : 55]

فلا ولاء لفرد أو مجتمع لا يؤمن بالله ، وعلامة الإيمان هي التحاكم إلى شريعة الله :

﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : 65]

ومن ثم فلا ولاء لفرد أو مجتمع لا يتحاكم إلى شريعة الله ، ويتحاكم **راضياً** بشريعة غير الله ، أيّاً كانت روابـــط الدم أو اللغة أو الجنس أو اللون أو الأرض أو المصلحة أو ما يكون من الروابط بين البشر في هذه الأرض .

والإسلام لا يعرف أوثاناً تعبد من دون الله ، يكون اسمها الوطنية أو القومية أو (الصالح العام) أو أي شيء علـــى الإطلاق لا يكون داخلاً في إطار الإسلام ، أي في إطار تحكيم شريعة الله .

وبهذا المعيار الحاسم كان يضبط عواطف المؤمنين ضبطاً محكماً من خلال هذا التوجيه الرباني :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـــا وَتِجَـــارَةٌ تَخْـــشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : 24]

فلا تتميّع العواطف ولا تتذبذب في قضية خطيرة تقوم عليها كل حياة الدنيا وكل حياة الآخرة ، وهي أن يكون الدين كله لله أم يكون لله فيه شركاء ، فيكون هو الشرك الذي لا يغفره الله في الدنيا ولا في الآخرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... ﴾ [النساء : 48]

والإسلام يوعّي شبابه وأبناءه جميعاً لكي لا تأكلهم الدعوات الزائفة ولا تخـــدعهم الـــشعارات الجوفـــاء ، ولا تستهويهم الدعايات الكاذبة سواء للمبادئ أو الأشخاص .

إنه يمنحهم المحكّ الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والخير والشر ، إنه صدق التحاكم إلى شريعة الله :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور : 47-52]

وكل الدعوات الزائفة التي تلتهم الناس في الجاهلية –والشباب بصفة خاصة– لا اعتبار له ولا وزن عند المـــسلم الذي يتربى على منهج التربية الإسلاميّة ، لأنه يزنها بميزان الله –الإسلام– فلا يجدها ذات وزن !

وحتى حين تتلبس هذه الدعوات زوراً بالإسلام فإنها لا تخدع المسلم الحق ، أو لا ينبغـــي أن لا تخدعـــه ، لأن كتاب الله يحمل إليه توعية كاملة بمكائد الأعداء وتلبيسهم الحق بالباطل :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُـرُوا آخِـرَهُ لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران : 72]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِـيهِمْ يَقُولُـونَ نَخْـشَى أَنْ تُـصِيبَنَا دَائِرَةٌ ... ﴾ [المائدة : 51-52]

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ... ﴾ [البقرة : 120]

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ... ﴾ [البقرة : 204-205]

والذين يقولون في دعاواهم : نأخذ من الإسلام كذا ، ومن الديمقراطية كذا ومن الاشتراكية كـــذا .. ونظـــل مسلمين ، يقول الله في أمثالهم :

﴿ ... أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : 85]

وهكذا تنضبط مشاعر المسلم وعواطفه ، وتنضبط حركته كذلك في خضم التيارات .

❍ ❍ ❍

وتعنى التربية الإسلاميّة كذلك بالنمو العقلي الهائل الذي يحدث في هذه المرحلة من العمر .

والعلم من الوسائل المعينة على تغذية العقل ولا شك . ووقت أن كان المسلمون مسلمين حقاً كانوا هـــم أهـــل العلم في الأرض ، وكانت أوروبا تتعلم وتتثقف في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم . وكان الأوروبيون يترقبـــون في وظائفهم ومكانتهم الاجتماعية والفكرية والعلمية بمقدار ما نهلوا من العلم في مدارس المسلمين !

ولكن هناك ما هو أهم من العلم في الحقيقة ، وهو منهج التفكير ، لأنه هو الذي يولد العلم والثقافة وطريقة النظر في الأمور .

ويقول المنصفون من أهل الغرب –وما أقلهم !– إنّ أهم ما تعلمته أوروبا من المسلمين في بدء نهضتها هو المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي بنت عليه أوروبا كل تقدمها العلمي فيما بعد .

والمنهج التجريبي في البحث العلمي هو بلا ريب نتاج الإسلام والتوجيه الإسلاميّ للعقل البشري ، فقـــد كـــان المنهج –قبل المسلمين– هو منهج اليونان العقلي الفلسفي ، الذي يكتفي بالإثبات العقلي وحده ، ويجعـــل القـــضية صحيحة إن صحت في الذهن بصرف النظر عن حالتها في الواقع ! فجاء الإسلام بتوجيهاته وتطبيقاته فحول العلم إلى مجراه التجريبي الواقعي .

ثم إنّ للإسلام منهجاً للنظر في الأمور ، هو المنهج العقلي المتجرد من الهوى وشهوة النفس ، المنضبط في الوقـــت ذاته بالوحي . وهذا المهج هو الذي أخرج تلك الثروة الهائلة المتمثلة في الفقه الإسلامي وأصوله . وهي من أضـــخم الثروات البشرية في التاريخ .

والخيط قد انقطع أو كاد بين حاضرنا الضائع وهذا الماضي المجيد الذي يحمل تلك الثروة الفكرية الهائلة . وصرنا إذا أردنا أن نتعلم المنهج التجريبي أرسلنا أبناءنا إلى الجامعات الغربية ، وإذا أردنا أن نتعلم منهج النظر –حتى في أخص شؤون ديننا وهو الشريعة الإسلامية واللغة العربية– أرسلنا أبناءنا للمستشرقين !!

وإرسال أبناءنا إلى الجامعات الغربية لتعلم المنهج التجريبي في البحث العلمي ضرورة لا محيص لنا اليوم عنها ، إلى نسترد حاستنا العلمية التي فقدناها حين فقدنا حقيقة الإسلام في حياتنا وفي نفوسنا . ولا ضير علينا مـــن ذلـــك إذا أخذنا احتياطاتنا لكي ينجرف شبابنا في لوثة الجاهلية الجارفة هناك . وذلك بألا نرســـل إلاّ الـــشباب الـــذي نثـــق بإسلامه ، بعد توعية كاملة بحقيقة الإسلام وحقيقة الجاهلية التي سيقابلونها ، وأن يكونوا –زيادة في أسباب الوقاية– من ذوي الخبرة بالحياة ومن المتزوجين حتى لا يجرفهم تيار الفساد ولا يخطف أبصارهم البريق الخاطف الخاوي مـــن الرصيد الإنساني الحقيقي .

أما إرسال أبنائنا إلى المستشرقين ليتعلموا اللغة العربية والشريعة على أيديهم فعجيبة من عجائب (المـــسلمين !) في هذا العصر ، لا يفسرها شيء إلاّ الخواء العقيدي الذي يعيشونه ، والذي حوّلهم إلى ذلك الغثاء الذي تحـــدث عنـــه رسول الله ﷺ :

« **يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا . قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّـــهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ** ... » رواه أحمد .

فما يأخذ أحد أمور دينه من أعداء دينه إلاّ أن يكون من غثاء السيل الذي تحدث عنه رسول الله ، حتى لو كانوا يملكون منهجاً حقيقياً في النظر . ومنهجهم في النظر إلى الإسلام معروف . لا يمت إلى (العلم) بصلة على الإطلاق ،

إنما هي الرغبة في التجريح والتشويه وإلقاء الشبهات[2] .

وواجب التربية الإسلامية على أي حال هو العودة بالشباب إلى معينهم الأصلي يربُّون عليــه منــهج تفكيرهــم ويغذون به عقولهم . العودة إلى الكتاب والسنة وكتب الفقه والأصول . حتى الذين يتعلمــون الطــب والهندســة والكيمياء والفيزياء والرياضيات .. فهم في حاجة جميعاً إلى أن يكون لديهم منهج فكر سليم .

والمسلم يتربى على تمحيص الحقيقة والتجرد لها وعدم التأثر بمقررات سابقة ولا مقررات ذاتية لا برهان عليهــا ، ولا بمجرد الظن :

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : 36]

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ... ﴾ [المؤمنون : 71]

﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم : 28]

وحين يتربى المسلم على هذا النحو لا يتعرض للاستهواء للباطل ، وهو –كما قدمنا– من أشد ما يعرض لها الناس في مرحلة الشباب الباكر حين تستهويهم المبادئ والأشخاص بالبريق الزائف حين لا يكون لديهم الميــزان الــصحيح الذي يزنون به الأمور .

إنّ (الانقياد) خط من خطوط الفطرة كما أشرنا في هذا الكتاب وفي الكتاب الأول من منهج التربية الإسلاميّة ، ونحن نتحدث عن الخطوط المتقابلة في النفس البشرية ، ومن بينها خطّا السلبية الإيجابية .

وقد جعل الله هذه القابلية للانقياد في أصل الفطرة ، لينقاد الصغير إلى مربيه ، ولينقاد الكبير إلى تعــاليم ربــه ، وينقاد الناس لأولي الأمر (المؤمنين) فتستقيم الأمور في الأرض . ولو لم يكن في النفس البشرية هذه القابلية للانقياد ما تم شيء من هذا كله ، وما استقامت الأمور في حياة الناس .

ولكن خط الانقياد –ككل خطوط النفس البشرية– عرضة للانحراف حين لا يتلقى التوجيه الصحيح . والشيطان –وأولياء الشيطان– يستخدمون هذا الخط ليبعدوا الإنسان عن الانقياد لله –الذي هو (الإسلام) أي إســلام الــنفس كلها لله– فينقاد للشيطان .

ومنهج التربية الإسلاميّة يركز على هذا الخط الخطير من خطوط النفس البشرية ليقوّمه ويصحح مساره ، بحيــث يكون الانقياد لله ولما جاء من عند الله ، وليحض الإنسان –والشباب خاصة– من الاستهواء لصيحات الباطل مهمــا كانت مزخرفة بمعسول القول . وهو منهج عقلي ونفسي في آن واحد . فالاستهواء في الحقيقة عملية مشتركة بــين

العقل والعاطفة . وتقويمها يحتاج إلى جهد في الجانبين معاً في آن واحد . جهد لتربية العقل على منهج سليم للنظـــر ، وتربية النفس على الانضباط وعدم الانسياق وراء العواطف الجامحة . ومن أجل ذلك تحدثنا عن الاستهواء مـــرتين : مرة ونحن نتحدث عن النمو النفسي من قبل ، وهنا ونحن نتحدث عن النمو العقلي .

إنّ الجماعات والهيئات والأحزاب والتكتلات -كما أشرنا آنفاً- تستغل قابلية الشباب للاستهواء العقلـــي مـــن ناحية ، وحماستهم العاطفية وقابليتهم للاستهواء العاطفي من ناحية أخرى لتحشرهم في زمرتها وتستخدمهم في تحقيق أغراضها .

والشاب المسلم الذي يتربى على المنهج الحق يكون في مأمن من الاستهواء بجانبيه العقلي والعاطفي سواء ، لأنـــه يملك المحك الذي يميز به بين الدعوات الحقة والدعوات الزائفة ، وبين العاملين بصدق والمزيفين المخادعين . فهو بادئ ذي بدء لا يمكن أن ينتمي ولا أن يعطي ولاءه لتجمع غير قائم على الإسلام . فأما إذا كثرت اللافتات وكلها تحمل اسم الإسلام فعليه أن يرجع إلى المحك ذاته ليميز بينها ويعرف أيها أولى بالاتباع .

والمحك واضح ..

أيها أقرب تمثيلاً لحقيقة الإسلام المتكاملة التي يتمثل فيها الدين والدولة والدنيا والآخرة والفكر والسلوك ونشاط الجسد ونشاط العقل ونشاط الروح ؟ لأن أي جانب من هذه الجوانب -وحده- لا يمثل حقيقة الإسلام وإن كان من الإسلام . فتربية الروح أمر جميل وضروري للحركة الإسلاميّة والحياة الإسلاميّة . ولكنها -وحدها- لا تكوّن المسلم الحق . وتربية الفكر بالثقافة الإسلاميّة أمر جميل وضروري ، ولكنها -وحدها- لا تكوّن المسلم الحق . وكذلك تربية الجسد بالنشاط والتدريبات .. لا يكفي أيٌّ منها بمفرده ، إنما يحتاج الأمر إليها جميعاً وفي وقت واحد .

ثم إنّ تقديم الإسلام على أنه (دين) يُعِدّ للآخرة وحدها هو تقديم ناقص كتقديمه على أنـــه نُظـــم تُعِـــدّ للـــدنيا فحسب ! . ومهما كان التربية التي تعدّ للآخرة من العمق والتأثير .. ومهما كان الجهد الذي يبذل في تقديم الـــنظم الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية الإسلاميّة ، ونظام الدولة ، وطريقة إقامة الخلافة .. فأيٌّ منـــها لا يكفي وحده ، ولا ينشئ الحركة الإسلاميّة الصحيحة .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الرجال العاملين في الحقل الإسلاميّ لهم ميزانهم الذي يوزنون به كذلك .

فهم يوزنون من جهةِ مدى إدراكهم للحقيقة الإسلاميّة في شمولها وتكاملها . ومن جهة مـــدى قـــدرتهم علـــى التحرك بمفاهيمهم الإسلاميّة بما يقتضيه الظرف الذي يعملون فيه . ومن جهة صدقهم في العمل . ومن جهة صبرهم وعزيمتهم عند الابتلاء .

وهكذا فإن الشاب المسلم الذي يرى لافتات كثيرة تعمل للإسلام أو تتظاهر بالعمل للإسلام يجد أن بين يديــه المعايير والموازين التي تمكنه من التمييز بين الخبيث والطيب ، والتمييز بين المتفاضلين حتى إن كانوا كلــهم طيــبين . وهكذا لا يضل سعيه وهو يختار الطريق .

كذلك فإن المنهج العقلي الإسلاميّ الذي يتربى عليه الشاب المسلم ، يعاونه على التعرّف على التيارات العالميــة ، السياسية والاجتماعية والفكرية ، دون أن تغره مظاهرها ، أو تغره الصورة التي تقنّع بها الحقائق وتُخفى عن العيون ، ذلك لأنه يملك من وعيه الإسلاميّ ما يبصّره بالحقائق .

فلن يخفى عليه مثلاً أن ما يمارسه الغرب اليوم ليس حضارة حقيقية ولكنه جاهلية ، لأنه لا يتحاكم إلى شريعة الله ولا يطبق منهجه في الأرض . ولن يخدعه التقدم المادي والعلمي والتكنولوجي والتنظيمي الضخم الذي يملكه الغــرب عن انحرافاته النفسية والخلقية وخاصة في مجال التبذل الجنسي ، وعن حتمية السنن الربانية التي تقرر أن مــصير هــذه الجاهلية إلى الدمار والبوار برغم كل قوتها الظاهرة ، لأن سنة الله تقول :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَــإِذَا هُــمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : 44]

وحين يدرس التاريخ على حقيقته فلن تخدعه النشرات الإخبارية التي يسمعها هنا وهناك وهي تحدثه عن (التوسع الإمبريالي) ضد الأمة العربية وأنه هو محور الصراع والنــزاع ، لأنه سيعرف أنه عدوان صليبي على الأمة (المسلمة) لا ضد الأمة العربية ، تسانده الصهيونية العالمية ، كُلٌّ لمصالحها ، وكُلٌّ لعداوتها التاريخية ضد الإســلام ، وأن الهــدف الحقيقي منها ليس امتلاك الأرض وتوسيع الرقعة (وإن كان هذا الهدف موجوداً بالفعل) إنما الهدف الحقيقــي هــو القضاء على الإسلام ، وأنه حتى لو كان الهدف هو امتلاك الأرض وتوسيع الرقعة فإنه لا سبيل إلى ذلــك في الأرض الإسلاميّة إلاّ بالقضاء على الإسلام ! وسيقرأ ويطّلع ويجد من تصريحات زعماء الغرب وساسته وكتابه ما يكــشف كشفاً واضحاً عن هذه الحقيقة ، من مثل قول جلادستون رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم البريطاني وقــت احتلال الإنجليز لمصر عام 1882م مشيراً إلى القرآن : (إنه طالما بقي هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقرّ لنا قــرار في تلك البلاد !) وقول أللنبي حين دخل القدس عام 1882م على رأس الجيش العربية (!) الذي ذهب يقاتل تركيا : (الآن انتهت الحروب الصليبية !) (أي بعد استرداد القدس من المسلمين !) وقول وزير الخارجية الفرنسية في الجمعيــة الوطنية حين قام بعض أعضاء الجمعية يطلبون إنهاء الحرب في الشمال الإفريقي لأنها أنهكت فرنسا بغير طائــل : (إنّ هذه حرب الهلال والصليب ، وينبغي أن ينتصر الصليب !) وقول أنديرا غاندي في تصريح صحفي لها عام 1969م (إننا نحب جمال عبد الناصر ونؤيده لأنه قضى على الإخوان المسلمين في مصر !) .. إلخ .. إلخ .. إلخ .

وهكذا –في جميع الاتجاهات– سيكون له موقفه المتميز ، المبني على الدراسة الواعية وتمحيص الحقائق ، والاهتداء بنور الحق المستمد من الكتاب والسنة ، وقراءة الحياة على ضوء السنن الربانية التي لا تتخلف ولا تتبدل .

– للكلام صلة –

---

(1) ثلل جمع ثلة ، وهي التي يسمونها في اللغة الدارجة (شلة) ومعنى ثلة في الفصحى المجموعة القليلة كما في قوله تعالى ﴿ **ثُلَّـــةٌ مِـــنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ** ﴾ [الواقعة : 39-40]

(2) انظر إن شئت كتاب (المستشرقون والإسلام) .